"...بالّتي هي أحسن"

"عاد إلى البيت بعد يوم عمل طويل، فتحت له زوجته الباب كما اعتادت أن تفعل. دخل إلى البيت بعد إلقاء التّحية. نظرت إليه زوجته، لم يكن يحمل بيديه إلّا حقيبة العمل...، لاحظ نظرات خيبة الأمل على وجه زوجته: "الأكل بالفرن" قالتها بلا مبالاة. لم يعْتد ذلك فقد كانت تحضّر له المائدة فور وصوله. وضع الأكل وتناوله على مضض. "انتظر فنجان القهوة من يديك!". قالها باستجداء. "باستطاعتك تحضير القهوة بنفسك فأنا متعبة" قالتها ودخلت غرفتها.

دار هذا الحوار بين رجل وزوجته; في اليوم الذي يصادف فيه ما يُسمّى بعيد الحب أو عيد العشّاق. لا لا تذهبوا بخيالكم بعيدًا، هذا الشّخص ليس أنا. أنا قمت بتقديم الهدية في ذلك اليوم، أو كما يُقال: "دفعت بالّتي هي أحسن".

اعترف أنني لا أؤمن بكل هذه المناسبات الدخيلة علينا، ابتداءً بعيد الحب، وانتهاءً بعيد الأم وعيد المعلّم وعيد العمال وغيرها، حيث اعتقد أنّها تُعتبر انتقاص مِن قيمة مَن نحتفل بهم، إذ نتذكرهم ونتذكر أعمالهم يومًا واحدًا بدل تقديرهم على مدار السّنة. على فكرة كلّما أسمع "بيوم المعلّم" أعرف أنّ مكانة المعلّم بانتقاص يومًا بعد يوم.

لم يعرف آباؤنا وأجدادنا ما يسمّى بعيد الحب. لم يعرفوا يوم الحب أو عيد العشّاق أو يوم القدّيس "فالنتين". بالمناسبة هذا الاحتفال هو يوم احتفال عند

إخواننا المسيحيين، يحتفلون بالحب والعاطفة حيث يُعبّر المحبّون فيه عن حبّهم لبعضهم البعض عن طريق تقديم الهدايا أو إهداء الورود وغيرها.

لا يوجد أي مجال للحديث عن الرومانسيّة في السّيرة الأصليّة للقدّيس "فالنتين". القدّيس "فالنتين" يقع بحب ابنة الامبراطور "كلاوديوس" ويزني بها. ولأنه راهب لا يستطيع الزواج، فما كان من الامبراطور "كلاوديوس" إلّا أن أعدمه! وهكذا اتخذ الغرب من يوم إعدام "فالنتين" عيدًا للعشّاق، وقُمنا نحن العرب بدورنا باستيراد هذا العيد كما نستورد كل شيء من الآخرين دون أن نعي حتى جذوره ومصادره.

أما كان أحرى بِنا أن نقتدي بعشّاقنا العرب، الأمجاد الذين صنعوا للحب بُرجًا عاجيًّا وأمثلة يعجز الغرب عن الإتيان بمثلها وبمثل نقائها وعفّتها حتى سميّت بالعذريّة (نسبة إلى قبيلة بني عذرة لكثرة العشّاق فيها).

عاشقون عرفوا حبيباتهم غيبًا دون وصل أو لقاء. عُرفوا بعفّتهم وفصاحتهم وانتشرت أشعارهم وذاع صيتهم مثل "مجنون ليلى"، و"جميل بُثينة"، و"عنترة بن شدّاد" وغيرهم من العشّاق والمحبّين.

ما علينا! سيقول البعض أنّه تاريخ وانتهى وكفى بكاءً على الأطلال فنحن "أولاد اليوم!". حقًا أننا نمر بأيام غريبة. الأحداث تتوالى بسرعة كبيرة، أحداث الحروب في العالم العربي، وفي أوروبا حيث التهديد الرّوسي بغزو أوكرانيا وإشعال فتيل الحرب في كل العالم. كذلك هزّات أرضيّة غير متوقّعة، منها الجغرافيّة ومنها

السياسيّة، أمراض "الكورونا" الجديدة بتشعّباتها وغيرها من الأمور المحزنة. عالم مجنون لم نعهده من قبل.

ممّا لا شك فيه أنه توجد جهات أو قُوى خفيّة وظاهرة تُسوِّق مناسبات مثل عيد الحب، لأسباب اقتصادية تجاريّة. عندما زُرت بائع الورد، الذي اعتدت شراء الورد من عنده، أخبرني أنّ سعر الورود والأزهار قد تضاعف عمّا كان عليه من قبل عيد العشّاق، ونحن نعرف جيدًا أنّ ما يرتفع من أسعار في هذه البلاد لا ينخفض أبدًا إلّا سعر الإنسان فهو بانخفاض دائم. هل يقتصر الأمر على بائعي الورود؟ طبعًا لا. فهناك بائعو الهدايا (الدببة الحمراء والقلوب المخمليّة) وبائعو الحلويات والزّينة والبالونات الملوّنة، فلا يخلو عيد بدونها ناهيك عن عيد العشّاق والمحبّين!

انا لا أذكر أنّ أبي قال لأمي يومًا، أمامنا، "أنا أحبك". وحتى بعد أن كبرنا لا أذكر أنّه صرّح بحبه لها علنًا أمام النّاس أو حتى من خلال منصّات التواصل الاجتماعي كما يفعل البعض بصورة مبتذلة. فهذا الشيء كان يُعتبر عيبًا في تلك الأيام ومرفوض رفضًا قاطعًا. هل تعلمون أنّ الشّاعر كان يًمنع من الزّواج بمحبوبته إذا قال بها شعرًا كما حدث مع "قيس بن الملوّح" وحبيبته "ليلى"؟!

اليوم الأمور معكوسة فعلماء النّفس يؤكدون واجب ابداء مظاهر الحب بين الزّوج وزوجته أمام أولادهم بكل فرصة متاحة، وذلك بهدف تذويت قيم الحب في نفوسهم منذ الصغر كما يدّعون. لهذا أصبح ابناؤنا يحبّون كلّ اثنين وخميس، متأثرّين بكلمات الحب بين الأم والأب! أنتم تعرفون أنني أسخر من ذلك!

أنا لست هنا بصدد مناقشة قضيّة "البُخل العاطفي" الذي امتاز به أهلنا في الماضي وعلاقته بعواطفنا اليوم، حيث لا أجد تغييرًا كبيرًا قد طرأ منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا. فما زلنا نبخل على أنفسنا بتعابير الحب والعاطفة، على زوجاتنا وازواجنا وحتى على أولادنا.

هذا الزّمن المادي الذي نعيشه قتل فينا مشاعر حلوة ما كان يجب أن نسمح لها أن تموت. لست من دعاة المثاليّة، فأنا أعرف أنّ الخلافات الزّوجيّة شيء طبيعي في حياة كل زوجين، تفرضه هموم الحياة اليوميّة وصعوباتها ومتطلباتها.

رغم معارضتي لعيد الحب وغيرها من الأيام كعيد الأم وعيد المعلّم إلّا أنني لا أرى ضررًا في الاحتفال في هذه الأيام، إذا كان بالأمر تخفيفًا وترويحًا عن أنفسنا لما نمرّ به في هذه الأيام العصيبة. أقسى ما نواجهه اليوم هو مشكلة الأحاسيس والمشاعر، فالنّاس يجفّون من عدم الاهتمام مثلما تجف الزّهرة من انعدام الماء. فالحب عبارة عن زرع، فاسقوا زرعكم كي لا تحوجوه لماء الآخرين!

كما تعلمون فإنّ اللون الأحمر يغلب على ألوان عيد الحب. لذلك لن تخلو مدونتنا من طرفة:

المعروف أنّ آباءنا وأجدادنا كانوا يلبسون "المداس" وهو حذاء مصنوع من جلد الماعز. وكان "المداس" غالي الثمن يلبسه العريس يوم عرسه ويحتفظ به بعد ذلك للمناسبات مدى الحياة.

وحدث أنّ أحد العرسان لم يكن بمقدوره أن يشتري مداسًا أحمر جديدًا ليوم عرسه فاستعار، سرًا، من أحد أصدقائه مداسًا أحمر "ليستر وجهه" به أمام النّاس.

وكانت العادة أن يخرجِ النّاس "للزّفّة" بشوارعِ القرية. فمشى صاحب المداس بجانب العريس وأخذ يوشوشه من وقت إلى آخر...

-انتبه للمداس! قدامك حجر

-لا تدعس بالوحل! بتوسّخ المداس.

حيّد عن المي، امشي على مهلك

-اوعى! المداس...

فانتبه أحد أقارب العريس وهزّته النخوة فذهب وأحضر مداسًا أحمر له. فطلب من العريس أن يخلع مداس الرّجل ويرميه بوجهه. فامتثل العريس لأمره وفعل ما قال له.

وبعد قليل خرج موكب العريس مجدّدًا إلى حيث كان يجب أن يتم عقد القرآن. فمشى صاحب المداس الجديد إلى جانب العريس وأخذ يقول له بصوت مرتفع

-المداس مداسي! ادعس ولا يهمك.

-كل المداس على حسابك

–امشي بالميّ! خبّص بالوحل! مداسي فداك

فانتفض العريس وانتزع المداس من رجليه وقال: "بلا مداس، ولا جميلة الناس".

دمتم بكل الحب

أ.أيمن جبارة